الناصرية والمسيرة العربية

يطالعنا التاريخ الحديث بظاهرة ارتبطت باهم احداثه وكان لها بالغ الأثر في توجيه مسيرته ، هي ظاهـــرة القومية الحديثة التي جاءت نتيجة انقسام الجنس البشري الى عدد من الامم تبلورت شخصيتها وتكونت ارادتهـــا واتخذت مكانها على مسرح التاريخ . والملاحظ بوضوح ان الامم لا تبلغ المرحلة التي تتبلور شخصيتها وتفـــرض وجودها الا بعد كفاح طويل واثر صدمات قاسية احيانا. هذا هو ما حدث بالنسبة للامة الفرنسية التي تبلورت شخصيتها ، وبدأت بذلك الحركات القومية الحديثة كلها، عندما حاصرها الاعداء من كل جانب في الثورة الفرنسية. وهذا ما حدث بالنسبة للامة الالمانية بعد الهزيمة الساحقة التي انزلها جنود نابليون بالاقطار الالمانية كلها وعلـــى راسها بروسيا . وهذا ما حدث ايضا بالنسبة للامـــة الايطالية بعد ان حطمت قوات النمسا بضربة واحـــدة الجيوش التي جندتها الاقطار الايطالية بقيادة بيدمونت.

وهذا كذلك هو ما حدث بالنسبة للامة العربية في اعقاب هزيمة جيوش اقطارها الثمانية علـــى يد شراذم الصهيونيـــة .

وفي كل من هذه الحالات كانت الهزيمة بمثابـــة صدمة اطلقت وعي «الجماهير» من عقالـــه ، فانتزعت القيادة من قادتها السابقين وهبت تؤكد ذاتها ووجودها وتفرض نفسها على مجرى الاحداث المعاصرة .

وليست الجماهير في هذه المرحلة من مسيرة الامم هي «الغوغاء» و«الدهماء» و«رجل الشـــارع» الذي لا يعرف الا مصلحته الخاصة الضيقة ولا يعمل الا لاشباع حاجاته المادية الرخيصة ، كما يحب البعض ان يصورها. كما انها ليست مفهوما ميتافيزيقيا او كمّا تصوريا يتألف من طبقات تصارع بعضها كالوحوش ، او كائنا يتجسد فـــي كتلة غير متميزة من الناس بلا فردية، كما يذهب آخرون. ان الجماهير هي ـ في هذه المرحلة ـ مجموع «الافراد» الذين يؤلفون الامة ويتمتع كل منهم بكيانه الخاص كعضو في هذه الامة ، ولكل منهم قدرة التفكير وارادة التغيير، ولكل منهم تجربته الخاصة في الحياة . وشخصية الامة عندما تتبلور هي خلاصة هذه التجارب جميعا .

ان «نقد الذات» ، بالنسبة للمثقفين العرب ، هو الاساس الضروري لفهم المسيرة العربية .

هذا هو المفهوم الاساسي في الناصرية ، والقاعدة التي يقوم عليها بنيانها . وهذا هو جوهر المرحلة الراهنة من مسيرتنا ـ مرحلة انطلاق وعي الجماهير العربيـــة وبلورة شخصية الامة العربية .

ان الناصرية في صميمها هي التعبير الحي عـــن الارادة الواعية للايين الافراد الذين تتألف منهم امة تنضج وتفرض وجودها ، وسر نجاحها هي انها ادركت قيمة كل فرد في هذه الملايين فتركت اثرا في كل واحد منهم . وهكذا دخلت كل بيت عربي وتحولت في وجداننا كعرب الى «فكرة» استوعبها كل منا بقدر ـ وان اختلف معهـا بعضنا . فالناصرية تجربة شخصية عاناها الناس العرب كأفراد وعانتها الجماهير العربية في صورة تحقيق مادي ملموس لمطالب وآمال يحسها كل العرب تقريبا .

وهذه الحقيقة هي التي جعلت الناصرية موضع قبول على نطاق واسع ، لا في الوطن العربي وحده ، ولكن بين اعداد متزايدة من شعوب البلاد النامية الاخرى بشهادة

الاصدقاء والاعداء . وهي التي دفعت اصدقاء الشعوب في كل مكان الى الاستماتة في صداقتهم لها ودفعت الاعداء الى الاستماتة في عدائهم لها . فهي الدليل الحاسم على يقظة الضمير العربي وظهور الارادة العربية كعامل فعال على مسرح التاريخ ، وبها ثبت للعالم ان مسيرة الامة العربية قد بلغت مرحلة التأثير الايجابي في الاحداث ، وانها لا بد ان تغير موازين القوى في عالمنا المعاصر وهي تحقق اهدافها الاجتماعية والقومية . وهذا وحده هو التفسير المنطقي للاهتمام البالغ في كل عواصم العالم الكبرى بما يجري هنا ، وبكل بادرة تصدر من جانبنا ـ والا فما معنى تلك الصيحات الهستيرية التي تتردد اصداؤها في الدوائر الاستعمارية والامبريالية مع كل تقدم نحرزه في تحقيق وحدتنا او كل تصاعد في قوانا ؟ وما سر تطلع الشعوب المناضلة نحو امتنا ـ حتى ونحن في محنتنا ـ كلما اشتد بها الامر ؟ ليس هناك من سبب لذلك سوى ان الامة العربية، وقد وضعت الناصرية اللمسات الاخيرة في بلورة شخصيتها وقدراتها ، قد حددت موقفها الى جانب نضال الشعوب من اجل الحرية في كل مكان .

وما كانت الناصرية لتستوعب كل تلك الطاقات الخلاقة في امتنا لولا انها من صنع الجماهير نفسها في مسيرتها نحو الوعي بذاتها وتأكيد وجودها كأمة متميزة خصها التاريخ ، كما خص غيرها من الامم ، بسمات تفردت بها . وعلى كل من يريد ان يحدد ابعاد الناصرية بالنسبة للمسيرة العربية ان يتناولها بوصفها ، اولا وقبل كل شيء اخر ، مرحلة وعي الجماهير العربية ، المرحلة التي بدأ فيها العرب يصنعون تاريخهم بارادتهم الواعية.

اننا اليوم نصنع تاريخ امتنا ، نصنع بارادتنا تاريخ هذه المنطقة من العالم التي تنتمي اليها امتنا ، ومن ثم فنحن نشترك ـ عن وعي ـ في تحديد مسيرة التاريخ البشري كله . ولم يكن التاريخ يوما من صنع افراد مهما كانوا عظماء وعباقرة . فهم قد يبلغون ، كما بلغ عبد الناصر ، مكانة لا تدانيها مكانة اخرى في النفوس . وقد نطلق اسماءهم على مراحل بأكملها من التاريخ ، ولكن بوصفهم رموزا لها وليس لأنهم صنعوها . ان صناع التاريخ هم الجماهير وليسوا العظماء والعباقرة او الصفوات المختارة من المثقفين .

وما كان عبد الناصر يستحق منا ان ننسب الى اسمه هذه المرحلة من تاريخنا ، مرحلة وعينا كجماهير نصنع مجتمعنا بارادتنا ، الا لانه ادرك هذه الحقيقة كاملة واستوعبها تماما وقام بالدور الذي تتطلبه بلا زيادة ولا نقصان ـ فلم يدع لنفسه حقا في القيادة والتوجيه . لقد كانت العبارة التي لم يمل من ترديدها يوما «ان الشعب هو القائد ... ان الشعب هو المعلم» . ونحن نعلم جميعا ان صفة عبد الناصر الاولى كانت الاخلاص فيما يفعل والايمان العميق بما يردد من شعارات .

لقد ادرك زعيمنا خصائص هذه المرحلة من تاريخنا واحس بنبض الجماهير واتجاهاتها وربط حياته كلها بها وجعل من نفسه منفذا لارادتها وحدها ، وليس وصيا عليها او مربيا لها .

وسيبادر غير الناصريين الى توجيه تهمة «الذيلية» (وهي مصطلح يستعمله البعض بمعنى السير وراء الجماهير ، لا أمامها كما يجب على «الطليعة») الى الناصريين الذين يؤمنون بقيادة الجماهير بهذا المعنى . ولا اظن الناصريين سيحاولون دفع هذا الاتهام ، بل لعلهم سيفخرون بانهم كانوا دائما ، وسيظلون ابدا ، جزءا من الجماهير يعملون باخلاص من مواقعهم ايا كانت ـ سواء في مقدمتها حيث تضع السياسات المنفذة لارادتها او في مؤخرتها يدفعون معها الطعنات التي توجه اليها من الخلف .

ان مفهوم تحالف قوى الشعب العامل الذي صاغته الجماهير الناصرية من وحي تجربتها ومعاناتها لا يفرق بين مقدمة ومؤخرة في النضال من اجل تحقيق الوحدة والرفاهية للعرب كلهم والكرامة لكل انسان عربي . وقد تكون الصيغة التنظيمية لهذا المفهوم في حاجة الى مزيد من البلورة بحيث تتيح اوسع مجال ممكن للمثقفين والتكنولوجيين من ابناء امتنا للاسهام في بناء قواعد الدولة العصرية واقامة صرحها من اجل المستقبل العربي. وليس في اعادة النظر فى الصورة التنظيمية ما يتنافى مع جوهر الناصرية ، فالتنظيم في الفكر الناصري هو اولا واخيرا وسيلة يعبر بها الناس بصورة مباشرة عن افكارهم وتطلعاتهم وآمالهم وتتحدد بها رغبات الجماهير وتتحقق ارادتها . ولكن كل ذلك يظل دائما بشرط لا غنى عنه ، هو ان يدرك ان المرحلة التي بلغناها من كفاحنا هي مرحلة وعي الجماهير ، مرحلة الناصرية ، وان الشعب هو الان ، وسيظل ما بقيت الامة ، القائد والمعلم وحده دون غيره ، وانه لم يعد في حاجة الى وصاية تفرض عليه او الى من «ينوبون» عنه في توجيه مصائره .

ان الطريق ما زال طويلا وآفاق النصر دونها عقبات غير هينة ، وامتنا في مستهل مرحلة تأكيد ذاتها ، وليس هناك ما هو أخطر علينا من ان نسيء فهم انفسنا .

* * *

لقد حاول الانسان عصورا طويلة «فهم» العالم الذي يحيط به ، ولم يبدأ في محاولة «تغييره» الا منذ بداية العصر الحديث ـ وهي الظاهرة التي كان اول من تنبه اليها كارل ماركس ، بعد ان بدأت فى الغرب باكثر من ثلاثة قرون ، وحاول ان يضع لها المبادىء والقوانين .

وقد بدأ العرب ـ كعرب ـ يتلمسون طريقهم الى «فهم» العالم الحديث منذ بداية القرن الماضي تحت تأثير الغزو الاوروبي لبعض اراضيهم . وبدأوا يعملون على

«تغيير» عالمهم بزعامة عبد الناصر منذ اول النصف الثاني من القرن العشرين عندما بلغت جماهير الامة العربية ـ في اعقاب حربين عالميتين وتطورات تكنولوجية ضخمة ـ مرحلة الوعي الارادي .

فالتاريخ العربي الحديث والمعاصر ، مثل كل تاريخ حديث ومعاصر آخر ، هو قصة مولد «وعي» العرب ونموه ، من بدايات متفرقة هنا وهناك في تلك البقعة من الارض التي يسكنها الناطقون بالضاد الى مسيرة ضخمة تجتذب انظار العالم وتتكتل ، معها او ضدها ، قوى الصراع البشري المعاصر كلها .

وكانت هذه البدايات الاولى بمثابة بحيرات صغيرة تجمعت فيها قطرات الوعي الفردي ثم خرجت منها قنوات ضيقة من الوعي النامي لا يلبث بعضها ان يختفي ، فهو لا يستطيع مغالبة القوى المضادة، ولكن البعض الاخر يستمر في صلابة لتتكون منه روافد تتجمع وتتقارب لتصب في ذلك النهر الكبير من الوعي القومي العربي الذي يكمل مسيرته ، متحديا قوى الردة والعدوان ، صانعا على جانبيه التقدم والحرية والحياة ، وتتردد في جنبات واديه وقع خطوات الانسان العربي يؤكد في ثقة وثبات وبالدليل المادي الملموس ارادته ووعيه . انه الوعي العربي يتفتح امام اعيننا خطوة فخطوة ، والارادة العربية تنطلق من عقالها امام نظرنا يوما بعد يوم ، في مسيرة طويلة تندمج في نهايتها الامة العربية في ذلك المحيط البشري الواسع بعد ان تؤكد ذاتها وتسهم في التراث البشري بما هي جديرة بالاسهام به .

* * *

لقد بدأت المسيرة العربية في اوائل القرن الماضي بانتفاضات محلية في بعض المناطق التي احتلها الغربيون في مصر والجزائر وفي كل مكان من ارض العرب وقع فريسة الاحتلال . ولم يكن في هذه الانتفاضات ما ينطوي على معنى قومي ، بل ولا حتى على معنى وطني اقليمي واضح ، ولكنها كانت حركات تلقائية ضد دخيل من غير «الملة» . وتزعم هذه الحركات نفر يغلب بينهم رجال الدين ، وكان من الطبيعي الا تنطوي مثل هذه الحركات ـ التي تكاد تكون ظاهرة عامة في بداية كل حركات البلاد النامية التي وقعت فريسة للاحتلال الغربي ويطلق عليها الدارسون مصطلح «حركات المقاومة الاولية» ـ على اي مضمون اجتماعي باستثناء بعض المفاهيم التقليدية التي اختلط فيها الحنين الى الماضي الكريم بالمشاعر والاحاسيس الدينية . فهي في جوهرها فورات سلبية ليس لها من هدف سوى المحافظة على الاوضاع القائمة ، ومن بينها الامتيازات الخاصة التي كانت تتمتع بها بعض الزعامات الدينية في ذلك الوقت ، في مواجهة «التغيير» الذي جاء المستعمر يفرضه .

ولكن هذا الصدام الذي حدث بين الدخيل وابناء البلاد ، والذي انتهى في معظم الحالات بهزيمتهم امامه ، دفع بعض العرب ممن لديهم شيء من سعة الافق الى التفكير في الاوضاع المتحجرة التي تعيش فيها بلادهم وأتاح الفرصة لعقد المقارنات بينها وبين الحضارة المتفوقة التي جاءت تدوس ارضهم عبر البحر .

وتمخض التفكير والمقارنة عن عدة دعوات اصلاحية تهدف الى احياء الثقافة «العربية ـ الاسلامية» وتنقيتها من الادران لاستعادة الامجاد الماضية . وشيئا فشيئا نمت بواكير الوعي ، وفي الربع الاخير من القرن ظهرت في عدد من الاقطار العربية حركات من نوع مختلف ضد اضطهاد «الحكام» فيها وسلطانهم المطلق . وبدأت تظهر حوالي هذه الفترة بعض المفاهيم السياسية الغربية بين دعاة الاصلاح ، كما ظهر من ابناء البلاد من احسوا بأنهم ينتمون الى مجتمعات متميزة حتى عن المجتمعات الاسلامية الاخرى . وهكذا ولدت بذور القومية الاقليمية في بعض انحاء الارض العربية في مواجهة المحتلين الاوروبيين .

وفي هذه الاثناء كان المشرق العربي ، الذي ظل في مجموعه ساكتا لوقوعه تحت سيطرة مستعمر لم يعتبر «اجنبيا» لانه كان من نفس الدين ، وقد بدأ يتململ بعد ان تسربت اليه هذه المفاهيم بدوره وسرت اليه ايضا عدوى القومية في مواجهة «القومية الطورانية» التي كانت قد بدأت تعلن عن وجودها لدى المستعمر التركي .

وقد حدثت كل هذه التطورات بقيادة راقات المثقفين العرب ، من الزعامات الدينية في مبدأ الامر ، ثم من المثقفين ذوي الاتجاه العلماني الذين اتصلوا بالحضارة الغربية بدرجات متفاوتة ونمت لديهم بذور تلك الظاهرة التي قيض لها ان تغير مسيرة التاريخ البشري ـ ظاهرة «القومية الحديثة» ـ وتملكتهم الرغبة في تأكيد ذواتهم كقادة «لامة» ناهضة .

وحوالي مطلع القرن الحالي بدأت موجة الوعي النامي في البلاد العربية تتبلور في صور اكثر وضوحا وترتبط اكثر فاكثر بمضامين سياسية واجتماعية من النوع السائد في الغرب . ومنذ ذلك الوقت ظهرت على مسرح الحركة العربية تلك الفئة من المثقفين «السياسيين» الذين كان لهم دور كبير في التطورات التالية للمسيرة العربية . وكان تأثير الاحتلال الغربي علينا مزدوجا ، فهو لم يقتصر على اثارة المشاعر الوطنية التي تنطوي على مفاهيم اجتماعية وسياسية جديدة فحسب ، بل انه عمل في نفس الوقت على تأكيد انحراف هذه المشاعر عن مسارها الاصلي بخلق كيانات سياسية حصرت داخلها هذه المشاعر فولدت مشوهة وساعدت على بذر بذور انفصال قادة حركات الكفاح عن الجماهير العربية التي كانت اقل التصاقا بالكيانات السياسية الجديدة من قادتها المثقفين السياسيين . فقد نما لدى المثقفين العرب عموما ، بحكم تأثرهم اكثر من غيرهم بالمفاهيم الاوروبية،

الشعور القومي العلماني اسرع مما نما لدى الجماهير وفي انعزال عنها الى حد كبير . ولم يجدوا من الكيانات السياسية «الجاهزة» التي يربطون بها مشاعرهم القومية في ذلك الوقت سوى تلك الكيانات الجديدة التي هيأها لهم المستعمر وعمل على تثبيتها باكتشاف « الحضارات القديمة» ـ الفرعونية والفينيقية والبابلية ـ لكل منها والحط من شأن الحضارة الكبرى التى دمجتها جميعا اكثر من الف عام . بل انه سعى جاهدا حتى يدخل في روع المثقفين العرب ان الحضارة العربية هي السبب في تخلف بلادهم بعد الامجاد الفرعونية والبابلية والفينيقية، ثم اضفى على الكيانات التي خلقها «الشخصية الدولية» بمنحها «الاستقلال» . ووقع مثقفونا وبخاصة «السياسيون» منهم، في الفخ الذي نصبه لهم المستعمرون الغربيون وساقوا وراءهم اعدادا متزايدة من الجماهير التي كانت تثق فيهم باعتبارهم زبدة ابنائها وخلاصة مجتمعها ، وان ظلت الاغلبية الساحقة من الناس تحس بأنها تنتمي الى ما هو اكبر وأعظم من هذه الكيانات المصطنعة ولكنها لم تكن قد بلغت بعد تلك الدرجة من الوعي التي تستطيع معها بلورة ارادتها بنفسها والتعبير عنها بصورة فعالة .

وكان من الطبيعي في هذه المرحلة من المسيرة العربية ان يعتمد المثقفون السياسيون على المفاهيم الغربية في تنظيم انفسهم فنقلوا عنها ـ دون فهم كامل لجوهر ما ينقلون ـ نظام «الاحزاب المتعددة» باعتباره افضل النظم «والدليل على النضج والتقدم» .

وقد يكون نظام تعدد الاحزاب ملائما في المجتمعات المستقرة التي تريد تطور ذاتها في هدوء ودون مؤثرات خارجية قوية وعندما يكون الغرض من التنظيم السياسي هو تحقيق تغييرات اجتماعية معينة ، او المحافظة على اوضاع اجتماعية قائمة . اما عندما تكون القضية المطروحة ليست مجرد تحقيق الاهداف الاجتماعية بل تأكيد وجود الامة نفسها ، او حتى تحقيق «الاستقلال» في النطاق الاقليمي الضيق ، يصبح نظام الاحزاب بطبيعته مناقضا للهدف منه . فالغرض من الحزب ، اي حزب ، هو الوصول الى «الحكم» في ظل سيطرة الاحتلال المسلح لا يمكن ان يؤدي الى تنفيذ اية سياسة الا تلك التي يرضى عنها الاحتلال . وبذلك يصبح نظام الاحزاب والحكم النيابي باكمله مجرد مهزلة يلهي بها المستعمر ابناء البلاد المحتلة عن مطلبهم الاصلي . فضلا عن ان النظام الحزبي يحول جزءا كبيرا من جهود المثقفين في البلاد النامية الى الكفاح من اجل الوصول الى الحكم ، ثم الاحتفاظ به بعد الوصول اليه ، ويؤدي بالضرورة الى الانشقاق في صفوفهم والعداء بينهم بحيث يجعلهم جميعا فريسة سهلة لعدوهم الاصلي .

وهذا هو ما حدث فعلا في معظم البلاد العربية ، ولولا الفورات الجماهيرية المتوالية والصدامات الدامية بينها وبين المحتلين لما تحقق حتى ذلك «الاستقلال» الاقليمي المصطنع الذي فرضه المثقفون السياسيون كهدف على الجماهير في الاقطار العربية المختلفة .

واذا اردنا ان نضع «كشف حساب» لمكاسب وخسائر هذه المرحلة من مسيرتنا ، التي قاد الكفاح العربي فيها المثقفون ، والسياسيون منهم بصفة خاصة ، وفرضوا فيها وصايتهم على الجماهير العربية ، لهالنا الامر .

اولا : من الناحية الاجتماعية ، لم يحدث اي تقدم في اوضاع الجماهير المسحوقة ، فقرا وجهلا ومرضا وكرامة ، بل ان الحال ظل يزداد سوءا يوما بعد يوم بظهور فئات «المنتفعين» الذين انضموا الى المستغلين في استغلال الكادحين والى المضطهدين في اضطهاد المكافحين من اجل لقمة العيش ، وشهدت البلاد العربية لاول مرة في تاريخها جيوش المتعطلين تتجول في انحاء مدننا وريفنا بحثا عما تسد به الرمق في صورة يتندى لها جبين الانسانية ذاتها . وخنقت في مهدها تلك الصيحات القليلة المتناثرة التي ارتفعت تطالب بأقل قدر من العدالة الاجتماعية والتخفيف من حدة هذا الهوان البشري .

ثانيا : من الناحية السياسية ، تبلورت التنظيمات السياسية في معظم البلاد العربية على اسس ومفاهيم اوروبية تماما ولم يبذل اي مجهود لتحويرها حتى تلائم التربة العربية ، وكانت النتيجة الحتمية ان ابعدت الجماهير عن كل مشاركة في الحياة السياسية ، وبالتالي عن مجرد حق ابداء الرأي فيما يتصل عن قرب او بعد بمصيرها وحقيقة تطلعاتها وآمالها ، وصارت كمًا مهملا وزادت هوانا على هوان .

ثالثا : من الناحية القومية ، كانت هذه المرحلة مرحلة تكريس للكيانات المصطنعة التي عمل المستعمر بكل قواه على خلقها . وحتى «استقلال» هذه الكيانات ـ اذا اعتبرناه مكسبا ـ لم يتحقق الا بدماء الجماهير التي حرمت من كل ثمرة لتضحياتها. وعندما بدأت موجة الوعي القومي النامي تفرض نفسها شيئا ما على الاحداث لم تجد راقات المثقفين من العرب من سبيل ـ وقد سد في وجههم طريق الوحدة العربية الشاملة بانفصالهم عن الجماهير ـ سوى «ابتكار» اوطان ذات رقعة اوسع ، فظهرت دعوات مثل وحدة مصر والسودان ووحدة المغرب الكبير . وحتى مثقفو عرب المشرق الذين قامت على اكتافهم بواكير الدعوة التي تحمل الاسم الكبير ـ الوحدة العربية ـ لم يستطيعوا ان يستوعبوا في ذلك الوقت الوطن العربي كله فبدا التيار الغالب في دعوتهم مقتصرا على «عرب المشرق» ، في حين كان آباؤهم وأهلوهم من «الجماهير» يتنقلون بين تونس ودمشق، بين طرابلس الغرب وطرابلس الشرق ، بين القاهرة وبغداد وبيت المقدس ، كما يتنقل المرء في بيته ووطنه وينزلون حيث يطيب لهم المقام

فيعيشون ويتعايشون بصورة لا تتاح الا لابناء الامة الواحدة .

ومما زاد الطين بلة ان ظهرت في نهاية هذه المرحلة، قبيل الحرب العالمية الاخيرة وفي اثنائها ، اتجاهات جديدة لا يمكن ان تقوم الا في البلاد التي تحققت تطلعاتها القومية وتفرغت نهائيا لعلاج مشاكلها الاجتماعية داخل حدود مستقرة . وغفل اصحاب هذه الاتجاهات عن ان المسيرة العربية ما زالت في جوهرها قضية كفاح من اجل الوجود ذاته ، قضية نضال قومي – ذي مضمون اجتماعي محدد ولا شك – ولكنه قومي اساسا يمتزج فيه مطلب الوحدة بالمطالب الاجتماعية امتزاجا لا انفصام فيه وفي هذه الغفلة استورد مثقفونا «التقدميون» بدورهم مفاهيم وتنظيمات اوروبية اخرى يريدون تطبيقها بلا تعديل ولا تغيير ، وبجهل مدهش احيانا ، في هذه البلاد بصرف النظر عن واقعها وماضيها ومستقبلها ، بدعوى وحدة الكفاح مع القوى التقدمية في العالم ضد اعدائها من الامبرياليين والرجعيين ، وكأنما وحدة الكفاح لا تتأتى الا في صورة محددة تفرض على الجميع . وظهرت في الاقطار العربية «المستقلة» الاحزاب «الطليعية» ودعوات «الصراع الطبقي» وصيحات «وحدة الطبقة» العاملة على الصعيد العالمي .

واختلط الحابل بالنابل وضاعت مطالب الجماهير وتطلعاتها الحقيقية في خضم من الشعارات التي لا معنى لها ولا رابط يربطها بواقع المسيرة العربية .

* * *

وفي اخر الاربعينيات ضاعت فلسطين كنتيجة حتمية للانفصال الذي منيت به الامة العربية – انفصال مزدوج ، بين الاقطار العربية من ناحية ، وبين المثقفين العرب والجماهير العربية من ناحية اخرى .

وكانت الصدمة رهيبة واليمة ، ولكنها فجّرت المرحلة الاخيرة من الوعي العربي بين الجماهير ذاتها .

وقررت الجماهير العربية ، وقد بلغت مرحلة الوعي القومي الحقيقي ، ان تتولى الامر بنفسها – فهي لم تعد في حاجة لمن يتحدث باسمها – واختارت من بين ابنائها اكثرهم ادراكا لهذه الحقيقة واعمقهم اخلاصا لها وجعلته منفذا لارادتها وعلمته اسرار العمل الجماهيري المباشر وقادته على الدرب خطوة خطوة يتعلم منها ويستجيب لنبضها ... حتى اخر رمق في حياته .

وتبلورت من خلال كفاح الجماهير العربية ذاتها في مرحلة وعيها عدة افكار ومبادىء هي في مجموعها ما يطلق عليه العرب اسم «الناصرية» نسبة الى بطل الجماهير الذي مات في موقعه وهو ينفذ ارادتها .

وسارت مصر على الدرب ، ثم انطلقت السودان وليبيا ... واول الغيث قطرة .

عبد الكريم احمد

دار الآداب تقدم

الحب والحضارة

تأليف

هربرت ماركوز

ترجمة مطاع صفدي

يحاول ماركوز الذي يوصف اليوم بانه « فيلسوف » الثورة الجديدة ، ان يبرهن من خلال تراث التحليل النفسي والفلسفة والعلوم الاجتماعية وعلم الجمال على ان «ذلك الاجماع على ضرورة مراقبة غرائز الحياة وتقييد الليبيدو انما كان دائما تعبيرا عن القمع ولمصلحة ارادة السيطرة ، كما كان اداة لاستمرار القمع والسيطرة» . وهكذا يحاول ماركوز ان يقرن التحرر الغريزي بالتحرر الاجتماعي ... انه يرفض التراث الفلسفي الغربي القائم على تمجيد الانتصار والغلبة سواء باسم العقل او باسم ارادة القوة او باسم التقدم . وهو يرفض كذلك في ميدان الاخلاق احتكار الذات الدنيا ، ويعكس الآية فيعتبر ان حيوية الفرد انما تكمن اولا في عضويته ، وان مطالبة هذه العضوية بحق الارتواء الكامل هو اصل السعادة وأصل الحرية وأصل التقدم .

ويرى ماركوز في هذا الكتاب انه اذا ازيل التسلط ، فليس ثمة حاجة الى تقنين الحاجات وكبت الحيوية وقهر سعادة الانسان. فالحضارة التكنولوجية اذا حررت من يد الاستغلال الطبقي استطاعت ان تتيح للانسان مجالا رحبا لارواء حاجاته الحيوية ، وتحول مبدأ الصراع على الوجود ، من دفاع الانسان ضد الانسان بالحرب والقهر والعبودية وردود الفعل العدوانية والانحرافية او الثورية والتجردية ، الى تنمية «تصعيد ذاتي» من نوع جديد تصبح فيه المراقبة القسرية على حرية تحقق الغرائز مراقبة شعورية لمنع قيام نظام جديد من السيطرة والقمع الفردي والاجتماعي .

وهكذا يبني مركوز تفاؤليته على اساس حتمية انقلاب حضارة القمع من داخل بنيتها بالذات صدر حديثا – الثمن : ٦٠٠ ق.ل.